المرأة الجديدة في منظور الإنجيل

الدكتورة ماري خوري*

١ - يسوع محرِّر الإنسان

١.١ - تاريخ مخاطرة الحرِّيَّة

في البدء، افتتح الله التاريخ ببادرة خير، فكانت الخليقة. وكانت الـ«نعم» للإنسان، إذ «خلق الله الإنسان، رجلًا وامرأة، على صورته كمثاله»، أي متساويَين في الجوهر بالهويَّة والكرامة والحرِّيَّة. وخصّ الله الإنسان بدورٍ، هو إيّاه للمرأة والرجل على حدٍّ سواء داخل العيلة وخارجها:

أ - أنموا واكثروا واملأوا الأرض (تكوين ١/ ٢٨)[١] هي الدعوة - الرسالة إلى أن يجسِّد الرجل والمرأة رحمة الله وحنانه، أحدهما تجاه الآخر، فيتخاصبا بالحبّ معًا، ومعًا يشعّانه، فيفيضا على الآخرين ما أفاضه الله عليهما.

ب - «أخضعوا الأرض... والبحر... والفضاء» هي الدعوة - المهمَّة Mission التي يكِلُ بها الخالق إلى المخلوق إكمال الخليقة، فيزرع

(*) أستاذة علم النفس في الجامعة اللبنانية. مستشارة في علم النفس بجامعة سيّدة اللويزة.

(١) يُشير المرجع المحاط بقوسين، في سياق النصّ، إلى أحد أسفار الكتاب المقدَّس، بعهدَيه القديم والجديد. ويُشير الرقم الأوّل إلى الفصل، والرقم الذي يلي العارضة إلى الآية المقصودة في هذا الفصل من السفر.

الإنسان الحبّ «في كبد الأرض»، ويبادر إلى الخير، ويباع الجمال، ويسارع إلى الحقّ، ويسعى إلى السلام، فيعيش أصالة الحبّ في الائتمان على البيئة. تلك هي الدعوة - الدرر إلى أنسنة المجتمع والطبيعة، الموجّهة إلى المرأة والرجل معًا.

بادل الزوجان الأوّلان خير الجود بشرّ الجحود، فقد قالا «لا» لله، طمعًا بمصادرة «الـ - نعم» للإنسان. فكانت هذه أولى محاولات قتل الله الأب في التاريخ، المتلازمة مع قتل الإنسان وإماتة القِيَم. وهكذا اعتلّت هويّة الرجل والمرأة، واختلّت رسالتهما، ففسدت العلاقة بينهما وساءت مع الطبيعة، فغشى الأرض ظلمٌ وظلام: قست القلوب، وتحطّمت البراءة. وأمسى الكلّ قاينًا للكلّ، فاغتال عنف العدوانيّة لطف الرحمة الإنسانيّة. هوى الرجل فتهشّم، وتهاوت المرأة فتهشّمت. إمتُهنت كرامتها، وأُنزلت بها الدونيّة فاستُعبدت. تقلّصت قيمة الكائن البشريّ إلى جنسويّته، وفرغ الإنسان من كرامة شخصيّته، فأصبح الرجل مجرّد ذكر، والمرأة مجرّد أنثى وحسب. وأُكرهت على التبعيّة للذكر في دوّامة تدمير متبادل: يذلّها فيُذَلّ، تحقّره فتُحتقر، أمست المرأة شرًّا كلّها وشرّ ما فيها أنّه لا بدّ منها، واحةً في صحراء الحواس. تتآكلهما شهوانيّة أكولة، يتهالكان على استهلاكها فتهلكهما.

٢.١ - يسوع يحرّر المرأة

همَّ الإنسان صورته ما إن شوّه مثال الله بالتنكّر له (تكوين ٣/١-٨). فهام، مدى التاريخ، يسعى إلى مثال مفقود لا يزال يحمل في حنايا أشواقه بعض التوق المضطرم إليه. يرسم ملامحه الإلهيّة بموادّ حضاريّة، يستعيرها من واقع مجتمعه، ولا يلبث أن يسرد بموجبها تعاسة واقعه نفسه، لا-لشيء سوى لأنّ الإنسان تحوّل، بفعلته هذه، خالقًا لإله أنتجه هو على صورة قذميّته «الآدميّة». أعاد يسوع الكلمة المتجسّد المطابقة بين الصورة والمثال، مُذ وحّد، في شخصه، ناسوت ابن البشر مع لاهوت ابن الله. جاء بكلّ شيءٍ جديدًا، وبه صحّح ما أفسده الإنسان العتيق: قال يسوع «نعم» لله و«نعم» للإنسان في آن، بل وأظهر أنّ شرط الـ «نعم» لله

هي الـ «نعم» للإنسان. وما قاله يسوع كانه: إنّه الـ «نعم» عمّانوئيل.. ونعمه هذه هي قاعدة تحرير الإنسان من أنانيّاته وقزميّاته وخرافاته المتعدّدة. أكتفي[٢] باستعراض أبعادٍ خمسة لهذا التحرير، أسلّط الضوء فيها خاصّةً على تحرير المرأة. هي: الكرامة، المساواة، التبادليّة، القِيَم، عهد الأمانة.

أ - الكرامة

إتّخذ يسوع، بأخلاقيّة المحبّة، مواقف رفضيّة جليّة، هتك بها جدار المحرّمات الاجتماعيّة والدينيّة القائمة على التمييز الجنسويّ بين الرجل والمرأة، فأثبت لكلٍّ منهما الكرامة إيّاها على حدٍّ سواء. رفض المتّبعات التي التقطتها الشرائع الدينيّة من التقاليد الاجتماعيّة، ونسبتها إلى مصدرٍ إلٰهيّ، لتضفي عليها بذلك طابعًا قدسيًّا Sacral مُلزمًا، ولاسيّما، تلك التي تهمّش المرأة، وتطبّع دونيّتها، وتسلّم بقصور عقلها وإيمانها وحظوظها فتُكرهها على التبعيّة لبعلها الذي له أن «يسودها» (تكوين ٣/١٦). فهو السيّد، وله ملء الكرامة والحقوق كلّها. أمّا المرأة، فهي حُرمته، أو إحدى حَرَمِهِ وجواريه. بات عليها الانقياد لبعلها، واتّباعه، والانصياع لرغباته: «إن لم تَسلك بحسب أمرك، فافصلْها عن جسدك» (ابن سيراخ ٢٥/ ٢٥). إنّه وليُّ أمرها، قوّام عليها، بيده حقّ تقرير مصيرها تزويجًا أو هجرًا أو طلاقًا. فإن خشي نشوزها، وجب عليه موعظتها، وهجرها في المضاجع، وتأديبها بالضرب حتّى تطيعه. إنّه رب العيلة والبيت. لا يحقّ للمرأة مخالطة الرجال لأداء الصلاة في الهيكل، بل عليها أن تلزم الرواق الخارجيّ، وأن تلتزم الصمت في المجمع، فلا تجادل، ولا تستوضح، ولا تقرأ كتاب الشريعة في محضر الجماعة... لئلاّ تشكّك الرجال، وتفويهم وتفسد عليهم صلاتهم وصيامهم، فيذلّون بسببها. لذا يقتضي من الرجل، أن يحذر مكرَ النساءِ ودهائهنّ... بمثل هذا التمييز الجنسويّ في

---

(٢) شكّلت بعض مواد هذه الدراسة مقدّمة لكتاب الأب إميل إنّه: المسيح محرّر المرأة، منشورات الرسل، ١٩٩٧.

المنزلة والكرامة والحقوق، قضت شرائع مجتمعات الشرق ودياناته، وعنه لهجت حضاراته المتعاقبة، وعليه سارت شعوبُه البدويّة كما سارت الحضريّة، وإن بدرجات متباينة، شأنها في ذلك شأن سائر مجتمعات العالم.

كشح يسوعُ عن وجهِ المرأة غشاواتِ حجبته وراءها قسارةُ قلوب الرجال. وأزال عن عُنُقِها أغلالًا شرَّعتها لها غلاظة رقابهم (متّى ١٩/ ٤-١٢). «لقد انبرى يسوع أمام معاصريه مدافعًا عن كرامة المرأة الحقيقيّة، وعن دعوتها التي تستدعيها هذه الكرامة. وكان هذا مثيرًا للاستغراب والدهشة، بل ويثير الشكوك، لأنّ هذا التصرُّف كان يتنافى مع العوائد المرعيّة. لذا عجب تلاميذه إذ رأوه يحادث امرأة (يوحنّا ٤/ ٢٧). ومثله اشتكى الفرّيسيّ في نفسه، ما إن رأى المرأة الخاطئة تسكب الطيوب على قدمي يسوع فقال: لو كان هذا الرجل نبيًّا، لعلم مَن هي هذه المرأة التي تلمسه، وما حالها، إنّها خاطئة (لوقا ٧/ ٣٩). أمّا تصريح يسوع بأنّ العشّارين والبغايا يسبقونكم إلى ملكوت الله (متّى ٢١/ ٣١)، فقد أثار الذهول، بل السخط المقدَّس عند سامعيه المتغطرسين»[٣]. أعاد يسوع للمرأة نصاعة كرامتها التامّة، مذ جعلها الله شريكةً كاملةً في خلاص الإنسان، «صنع بها العظائم» (لوقا ١/ ٤٩) وأصبحت مباركة مملوءة نعمة (لوقا ١/ ٢٨، ٤٢). وكسر يسوع بمعجزة حبّه مألوف العادات السائدة، فأكرم المنبوذة (متّى ٩/ ٢٠-٢٢)، واحترم الخاطئة، وقَبِلَ السقيمة «لأنّها هي أيضًا ابنة إبراهيم» (لوقا ١٣/ ١٦)، وأعاد الاعتبار للمرأة في أعمالها المتواضعة المنزليّة (لو ١٥/ ٨-١٠)، ومسح الكآبة عن وجه السامريّة وأطلقها رسولةً للفرح (يوحنّا ٤/ ١-٤٢). وأعجب بفتوّة إيمان الكنعانيّة فاستجاب لسؤالها متوجّهًا نحو الأمم (متّى ١٥/ ٢١-٢٨). وانحنى بحنان ولمس حماة بطرس فشفاها (متّى ٨/ ١٥)... أثقلت التقاليد الاجتماعيّة والشوائع الدينيّة كاهل هؤلاء النسوة، وسلبتهنّ كرامتهنّ. فردّ يسوع لهنّ

---

(٣) البابا يوحنّا بولس الثاني: كرامة المرأة، منشورات المركز الكاثوليكيّ للإعلام، ١٩٨٨، ص ٥٢-٥٣.

الاعتبار والتقدير Estime de soi وأعاد للمرأة كرامتها، وأثبتها لها كاملةً، كرامة «لن ينزعها منها أحد» (لو ١٠/ ٤٢)، وما عدا ذلك، «فكلّ غرسٍ لم يغرسه أبي السماويّ سوف يُقلع» (متّى ١٥/ ١٣)، قال يسوع.

ب - المساواة

ألغى يسوع المفاضلة بين الرجل والمرأة، فأقام المساواة الكيانيّة بينهما لتستقيم علاقاتهما المتبادلة. دعا إلى المساواة التامّة في الكرامة والهويّة والرسالة ومستلزماتها الحقوقيّة في المجتمع. فالكائن البشريّ هو قيمة مطلقة بذاته ولذاته، رجلًا كان أو امرأة. إنّه قيمة غير قابلة التصرُّف، ولا يصحّ الطعن فيها أبدًا. كان الرجل وحده، في اليهوديّة، قادرًا على الانتماء إلى المجتمع الدينيّ ومؤهّلًا للقيام بالمهامّ العباديّة، لمجرّد سَرَيان شريعة الختان البدنيّ عليه، ولاستحالة إجرائها للمرأة. أمّا في المسيحيّة، فقد أصبحت عضويّة المرأة تمامًا كعضويّة الرجل، تتمُّ بالمعموديّة إيّاها التي يصطبغان بها باسم يسوع في الكنيسة على حدٍّ سواء، دونما تمييز أو مفاضلة أو توسُّط. «أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، قد لبستم المسيح، لا يهوديّ بعد الآن، ولا يوناني، لا عبد ولا حرّ، لا رجل ولا امرأة، فإنّكم واحد في المسيح يسوع» (غلاطية ٣/ ٢٧-٢٨). كشف يسوع الله أباه، أبًا للناس جميعًا. فالناس إذًا كلّهم إخوة. إنّهم إذن متساوون أنتولوجيًّا ولاهوتيًّا، لا أنتروبولوجيًّا وحسب: ذاك أنّ الناس هم بعيدون البعد نفسه عن الله بالخطيئة، محرَّرون بذبيحة حبِّ الابن نفسها، مبرَّرون بالروح القدس نفسه، مدعوُّون إلى كمال الآب نفسه بالمحبّة، مؤهَّلون إلى شرف البنوّة للآب نفسه بابنه يسوع، مدعوُّون إلى الكرامة العضويّة نفسها في الكنيسة، جسد يسوع السّرّيّ Corps mystique، ويحملون رسالة الشهادة ليسوع إيّاها. إنّهم مدعوُّون رجالًا ونساءً إلى تجسيد مثال يسوع، وتأوين Actualiser قِيَم إنجيله في يوميّات حياتهم، داخل العيلة، من أجل شخصنة الفرد والتضامن معه في تحقيق ذاته بفرادة مميَّزة، وخارجَ العيلة أيضًا، من أجل أنسنة المجتمع البشريّ، وتحقيق الذات معًا على كافّة المستويات Co-réalisation de soi وأنجلة العالم بالقِيَم.

ج - التبادليّة

أقام الله حوّاء وآدم في حالة إزائيّة متكافئة، يتحاذيان كصنوين متعادلين، يتحاكيان بتبادليّة سويّة، لكونهما متساويين في الكرامة والدور في الفسحة الخاصّة، أي داخل العيلة، وفي المساحة العامّة، أي خارجها. قال الله للأبوين الأوّلين «انموا واكثروا واملأوا الأرض، وأخضعوها، وتسلّطوا على سمك البحر وطير السماء، وجميع الحيوان الذي يدبّ على الأرض» (تكوين ١/ ٢٨). إنّ قاعدة التبادليّة Réciprocité هي أن «افعلوا للناس ما تريدون أن يفعله الناس لكم» (متّى ٧/ ١٢). تقوم التبادليّة على الاعتراف بالمساواة والكرامة بين الرجل والمرأة، بحيث تجمعهما علاقاتٌ احترامية، يُذخرها تضامنهما الحميميّ. فالتبادليّة هي تواحد وجدان Communion des consciences يتخطّى مجرّد التعاون والمساعدة والمشاركة Participation، ويناهض هضم الآخر Assimilation أو محاولة صهره Fusion، عشقيًا أكان هذا الصَهْر أم استعباديًا.

لا يتطالب الشخصان التبادليّان بأيّ شيء، ولا يتشاكران سوى على تواحدهما، وعلى أنّ كلًّا منهما هو حضور مع الآخر، هو حضور من أجل الآخر. لا تستعدم «الأنا» ذاتها أو تنفي ذاتيّتها، بل تُبطل، باندفاعها نحو «الأنت»، تشرنقها حول نفسها واجْتِرار أنانيّتها، فتغنى، لأنّها تُغني الآخر حبًا وخدمة[1]. في المسيحيّة، يمكن اعتبار حياة الثالوث الحميمة علاقةً تبادليّة خالصةً بين الآب والابن والروح القدس: «إنّ الآب فيّ وأنا في الآب» (يوحنّا ١٠/ ٣٥)، قال يسوع، «جميع ما هو للآب فهو لي» (يوحنّا ١٦/ ١٣) «أنا والآب واحد» (يوحنّا ١٠/ ٣٠). «الآب يُحبّ الابن، الابن يحبّ الآب» (يو ٥/ ٢٠). أمّا على المستوى البشريّ، فالتبادليّة بين الرجل والمرأة تقضي بأن يتساويا في المنزلة الاجتماعيّة Statut social، وفي تأدية الدور نفسه، أحدهما إزاءَ الآخر، ومعًا تجاه الآخرين، دون أيّة قسمة عمل مدغمة بقسمة قِيَم توازيها، يختصّ بها أحدهما دون الآخر. فما من

(١) NEDONCELLE, M: *La réciprocité des consciences*, Ed. Montaigne, 1942, p.17.

دورٍ أو عملٍ، أو قيمة، أو حقٌّ يُعطاه الرجل وتُحرَمه المرأة، حتّى ولو أنجزه كلٌّ منهما على طريقته.

سقط آدم وحوّاء في «امتحان مخاطرة الحرّيّة»[٥]، فاعتلّت هويّتهما، واختلّت رسالتهما، وفسدت العلاقة بينهما. تعطّلت التبادليّة الحقّة، وحلّت التكامليّة Complémentarité المجحفة قاعدة تعاملٍ بينهما، ومبدأ عيش يتمدّد ليطال كلّ الجماعات وكافّة المستويات الاجتماعيّة:

أولًا - تكامل في الشخصيّة: يكرّس التكامل التميز الجنسويّ ما بين فضائل رجاليّة، وأخرى نسائيّة: فللرجل القوّة والذكاء والجرأة والمبادرة والحرّيّة والفعل... وللمرأة العاطفة والمشاعر والخدمة والوداعة والضعف وبطء الفهم والانقياد والانفعال...

ثانيًا - تكامل في العلاقات والأدوار: تُعتبر السلطة والملكيّة، والاستحواذ، والقرار، والأمر - النهي، والوجاهة، والشأن من اختصاص الرجل، فيما التبعيّة، والمرؤوسيّة، والخضوع، والتقيّد والامّحاء... هي من حصّة المرأة.

ثالثًا - تكامل في قسمة العمل: يهتمّ الرجل بالشؤون الخارجيّة العامّة، الاقتصاديّة، السياسيّة، العسكريّة، الدينيّة... وله الانتاج الاقتصاديّ والاستقلاليّة، وتُعنى المرأة بالأمور الداخليّة المنزليّة والمطبخيّة والتربويّة التلقينيّة... حتّى ليصعب إيجاد مؤنّث بعض الأسماء: رجل أعمال، رجل الله، نائب، قنصل، ضابط، جندي، طبيب، كاهن....

أعاد يسوع للمرأة وللرجل نصاعةَ علاقةٍ فقداها باكرًا (متّى ١٩/ ٤-٩)، فافتقدا، مدى التاريخ، تبادليّةً جعلت منهما شريكَين متساويَين، يتوائقان بصدقيّة، قبل أن يُخجلهما عري أنانيّتهما الامتلاكيّة (تكوين ٣/ ٧). دعاهما يسوع إلى عيش المحبّة بمجّانيّة سخيّة، بموجبها يعترفان بحقّ

---

(٥) ماري خوري: «مخاطرة الحرّيّة»، صحيفة بيبليا، عدد ٤٣، أيّار ١٩٩٧، ص ١١.

المغايرة والفرادة الشخصيَّة الخاصَّة بكلّ فرد، أي بحقِّه في أن يتميَّز بمواهبه وبقدراته، وبها يتمايز داخل حضارته وعائلته عن أفراد جنسه.

+ داخل العيلة: يحمل الرجل والمرأة، داخل العيلة، رسالة يسوع بمسؤوليَّة مشتركة، يتخاصبان معًا بالحبّ، وممّا يشعّانه على ذويهما وعلى الآخرين. فالأبوَّة هنا هي، كالأمومة، محبَّة طافحة، ودفقُ حنان، ومرقاةٌ إلى الإنسانيَّة. لم تعد الأبوَّة طغيانًا وتسلُّطًا بالتخويف والتذنيب Culpabilisation والاقتصاص، بل أصبحت، مع يسوع، سلطة مُحبَّة محبوبة، تتهد إلى إنضاج الولد، وإلى تنمية قدراته، حتّى يبلغ استقلاليَّته، ويحقِّق ذاته بحريَّة. إنّها تأوين أبوَّة الله الآب الذي يترقَّب عودة ابنه المخاطر (لوقا ١٥/ ١١-٣٢)، ويتفطَّر قلبُه على الخروف الشارد فيَجدّ في إثره (لوقا ١٨/ ١٢-١٤)، ويبذل نفسه كالراعي الصالح للذود عن خرافه (يوحنّا ١٠/ ٨-١٥)، ويدعو الكلّ إلى وليمة الفرح (متّى ٢٢/ ١-١٤) فيغمر الجميعَ برحمته.

+ في المجتمع: يتعاون الرجل والمرأة معًا، ويتضامنان في الشهادة للحقّ لتغيير وجه العالم بجسارة الروح. رفض يسوع أن تبقى المرأة مهمّشة. فأشركها في مشروع الله الخلاصيّ، فأصبحت مريم باكورة، الشريكة الكاملة، بقبولها تجسُّد الكلمة في حشاها بفعل الروح (لوقا ١/ ٣٤) في الناصرة، وبتسريعها استقدام ساعة جلاء مجد يسوع في قانا الجليل (يوحنّا ٢/ ١٢)، وبمشاركتها في آلامه الخلاصيَّة على الجلجلة، وبحملها إلى النَّاس حبَّها ليسوع مشحونًا بحبِّه لهم (يوحنّا ١٩/ ٢٦-٢٧). إلتقى يسوع نساءً عديدات تبعنه، وحملن بُشراه إلى الآخرين، متحدِّيات تقاليد مجتمعهنّ، كالمرأة المنزوفة (مرقس ٥/ ٢٥-٣٤)، والسامريَّة (يوحنّا ٤/ ٧-٢٧) والمجدليَّة حاملة بشرى المستحيل... وهو دور كان يقتصر على الرجال. تُبنى التباديَّة بالحبّ، أمّا التكامليَّة فلا. فحيثما يكون الحبّ، تكون التباديَّة.

د - القِيَم

أدّى منطق التكامليَّة إلى تحطيم سلّم القِيَم المشترك بين المرأة

والرجل، فكان من عاقبته العمليَّة أن صُنِّفت بعض القِيَم والفضائل والحقوق في الخانة الرجاليَّة، طبق سلَّم خاصٍّ مدموغ بالتسامح، وبعضها الآخر أُنزل في الخانة النسائيَّة وفق سلَّم حصريّ ممهورٍ بالتشدّد، حتّى أضحى تخنُّث الرجل عارًا، واسترجال المرأة عيبًا، إن اتَّبع أحدهما سلَّم قِيَم الجنس الآخر.

أجلى يسوعُ القِيَم الإنجيليَّة Valeurs، فأقامها قِيَمًا إنسانيَّة واحدة، هي هي لكلٍّ من الرجل والمرأة، يؤوِّنها كلٌّ منهما بحسب عبقريَّته وذهنيَّته، بشكل معايير Normes تصلح لسلوكه وتصرُّفاته الخاصَّة به. لم يعد هناك، مع يسوع، قِيَمٌ تسمّى رجاليَّة وأخرى نسائيَّة: فالوداعة، والخدمة، والمعرفة والفهم، والجسارة والإقدام والمروءة... هي قِيَم إنسانيَّة، على كلٍّ من المرأة والرجل أن يعيشها، ويعبِّر عنها على طريقته. «إلبسوا إذًا، كمختاري الله قدّيسين، الحنان والرحمة والطيبة والاتِّضاع والرفق والأناة» (قولسي ٣/ ١٢)، يقول بولس. «هناك مواهب متنوّعة، ولكنّ الروح واحد، هناك خدمات متعدِّدة ولكنّ الربّ واحد» (١ قورنتس ١٢/ ٤-٥). ألغى يسوع التمييز الجنسويّ بين الناس، فقضى على عكازاته الحقوقيَّة - الشرعيَّة، التي طالما تذرَّعَتْ به وطالما تحصَّن التمييز بها. وحَّد يسوع سلَّم القِيَم، بطرحه أمثالًا Paraboles: كمثل الأب وابنه المخاطر (لوقا ١٥/ ١١-٣٥)، والسامريُّ الشفيق (لوقا ١٠/ ٢٩-٣٧)، والراعي الصالح (يوحنّا ١٠/ ١١-١٥)، والأمناء (لوقا ١٩/ ١١-٢٦)، والخادم العديم الشفقة (متّى ١٨/ ٢٣-٣٥)... عرضها أنموذجيًّا، وأجرى مثاليَّتها على كلّ إنسان دونما تفرقة أو تمييز أو استثناء. يسترشد المشترع بسلَّم هذه القِيَم الواحدة، ويصوغها في قوالب حقوقيَّة معياريَّة، تسري سواسيَّة على الجميع. ويروح المجتمع الحيُّ، الدينيّ والمدنيّ، يجدِّد هذه القوالب باستمرارٍ، طلبًا «لشفافيَّة» أعمق، وسعيًا إلى مُجانبة كلّ تمييز بين الناس، عرقيًّا كان أم دينيًّا، اجتماعيًّا، ثقافيًّا أم جنسويًّا...

هـ - عهد الأمانة

تلتقي الكرامة والمساواة والتبادليَّة والقِيَم، المذكورة أعلاه،

فتتمانق، وتنسكب مجتمعةً، في مؤسَّسة عهد الأمانة الزوجيَّة، تمامًا كما لعهد الأمانة في البتوليَّة المكرَّسة الكنسيَّة. لقد أعاد يسوع الزواج إلى بريق البدء الذي سبق انثقافي Acculturation الشرع الموسويّ بحضاراتِ زمانه، والسالفِ «المسايرته» قساوةَ قلوب معاصريه، الذين استطابوا رماد السهولة، فاستعاضوا به عن جمر القِيَم السامية (تثنية ٢٤/١، متّى ١٩/٨، ١ قورنتس ٧/١٠). أقام يسوع الزواج إحدانيًا يوحِّد بين رجل واحد وامرأة واحدة، لا انفكاك لهما منه ولا انحلال فيه. فالزواج المسيحيّ هو عهد تواحد مميَّز، وعقد تواثق فريد، يجمع راشدَين حرَّين، رجلًا وامرأة، بحيث ينكشف كلّ منهما للآخر بصدقيَّة، فيتحابّا بحصريَّة، ويتواهبا بمجّانيَّة، ويتماونا بتبادليَّة، ويتساويا بحرّيَّة، فيتعاهدا على القِيَم بأمانة، ويتعاقدا لتحقيق الذات معًا بكرامة، أمام الله والناس في الكنيسة. لذا ألغى يسوع تعدُّد الزوجات، كما ألغى تعدُّد الأزواج، لما في هذا النوع من الزواج، من ضربٍ لكرامة الكائن البشريّ، رجلًا كان أو امرأة، ولما يحمل من طعنٍ في المساواة، وتنكُّرٍ للتبادليَّة، وفرزٍ للقِيَم، وهي انتهاكات مهينة للزوجين، تحقِّر إحدانيَّة الزواج، ولا يعوِّضها ادِّعاء أصحابها الحرصَ على حسن تأمين حقوق الزوجات أو على ضمانة «العدالة» بين حريم الرجل المعدِّد[٦].

مع يسوع، أصبحت المرأة كالرجل قيمة مطلقة لا كمّيَّة. وأصبحت أنموذجيَّة الزواج تواحد يسوع مع كنيسته سرّيًا. (أفسس ٥/٢٢-٣٢). فالتعدُّد كالطلاق هو زنًى في المسيحيَّة. لذا، «يترك الرجل أباه وأمّه، ويتَّحد بامرأته ويصيران جسدًا واحدًا» (متّى ١٩/٥). «فما وحَّده الله لا يفرّقه إنسان» (مرقس ١٠/٩).

تشكّل المحبَّة المسيحيَّة الجامع المشترك لأبعاد تحرُّر المرأة هذه

(٦) أبو بكر باقادر ومحمّد النامديّ: «تعدّد الزوجات»، مجلّة الفكر العربي، عدد ٨٢، خريف ١٩٩٥، ص ٤٨ وما يليها. راجع زهير حطب: تطوّر بنى الأسرة العربيّة، معهد الإنماء العربيّ، ١٩٨٠، ص ٧٦-٩١.

الخمسة، التي نادى بها يسوع، فتغمرها ببهاء الحقيقة. وتشحنها بقوّة القِيَم، لتحوّلها إلى أداة نضال في سبيل الترقّي الإنسانيّ، بحسب حقائق الإنجيل. لقد أقبل المفكّرون وذرو الإرادات الطيّبة من مختلف المعتقدات والاختصاصات على تبنّي هذه الأبعاد الخمسة نفسها (الكرامة، المساواة، التبادليّة، القِيَم، عهد الأمانة)، فاعتمدوها أبعادًا إنسانيّة علمانيّة، بصرف النظر عن عمقها اللاهوتيّ. وبنوا بموجبها قواعد الديموقراطيّة الحديثة، وصاغوا الإعلان العالميّ لحقوق الإنسان، وما لبثوا أن اتّخذوها مقياسًا تطبيقيًّا موضوعيًّا، للنظر في ما آل إليه رقيّ المجتمعات البشريّة، وللحكم على المستوى الإنسانيّ التي بلغته. إنّ المرأة مرآة مجتمعها. فما من انتهاك لمقوّمات حرّيّتها الكيانيّة، إلاّ وهو مؤشّر لوحشة الرجل ولوحشيّة مجتمعه. يمكن النفاذ هنا إلى قانون سوسيولوجيّ مفاده أنّه، بقدر ما يتّجه المجتمع نحو تعظيم القوّة العضليّة وبدائلها المادّيّة أو الرمزيّة، يتّجه نحو التمييز الجنسويّ وتبريره، بالتالي، بخطاب قدسويّ الطابع، دينيًّا، أو بيولوجيًّا أو اجتماعيًّا... بالمقابل، بقدر ما يتّجه المجتمع نحو الاسترشاد بالطاقة القلبيّة[٧]، وبمجّانيّاتها الفعليّة والأدبيّة العلائقيّة، يتّجه نحو الديموقراطيّة ذات الوجه الإنسانيّ الأكثر أخوّة وحرّيّة وسلام.

لقد حرّر يسوع المرأة والرجل تحت كلّ سماء، حين نادى بالمحبّة قاعدةً للعلاقات بين الناس، أبناء الله، أفقيًّا، ومع الله عموديًّا، وأطلقها مبدأً، وأداةً، وغايةً ومحتكمًا لكلّ علاقة ناضجةٍ منضجةٍ، وبها حطّم بنية الخطيئة، ولاشى شوكة التسلّط بكلّ أشكاله، فأزال قوائم التمييز الجنسويّ من أساساتها في المجتمع. وبذلك، رسم يسوع الطريق إلى الكمال، بل كانه. إنّه الإنسان الكامل، إنّه المثال الحيّ.

١. ٣ - تصاعة صورة المرأة في الإنجيل

في ملء الزمن، طلب الله من مريم مشاركته في ولادة البدء

---

(٧) VELDMAN, F.: *Haptonomie, science de l'affectivité*, P.U.F., 1989, p.341-360.

الخلاصيّ. استجابت مريم بحرّيّة، وقالت باسم البشريّة المجروحة «نعمها» الخالصة، والتزمت مشروع سرّ التجسّد ودخول ابن الله تاريخ الإنسان، فأصبحت شريكة المخلّص في خلاص البشر، تحمل علامات «المرأة الجديدة»، بالتقائها يسوع في العهد الجديد.

أ - المرأة شريكة في الخلاص

أصبحت المرأة مع يسوع شريكة كاملة ملتزمة. فتراها حاضرة، متنبّهة، فطنة، مدركة، مسؤولة، مبادرة، كما كانت مريم في قانا الجليل حيث سرّعت إقدام يسوع على مدّ فرح العرس البشريّ بمعجزة خمير حبّه الإلهيّ (يوحنّا ٢/ ١-١٢).

ب - المرأة خادمة الكلمة

أصبحت المرأة مع يسوع خادمة الكلمة، مشغوفة بها، فتراها واثبة، متلمذة ليسوع تمهيدًا لتصبح معلّمة باسمه، فتكسر خبز كلمته وتوزّعها على الجائعين إلى الحقّ. لم تعد كمرتا مقيّدة بالاهتمامات المطبخيّة وما يشابهها، بل أصبحت كمريم تطلب أيضًا «المطلوب الأهمّ: خدمة الكلمة، وهو خيار لن ينزع منها» (لوقا ١٠/ ٣٨-٤٢).

ج - المرأة مناضلة بجرأة نبويّة

أصبحت المرأة مع يسوع مناضلة بجسارة الروح. فتراها متقدامة، مصمّمة، ثابرة، لسان حال الموجوعين، تتبنّى معاناتهم، ترفعها إلى يسوع بيدَين ضارعتَين، تتعقّبه بصلابة إيمانها، كما فعلت الكنعانيّة ابنة صور، حتّى ينعطف يسوع فيمسح بمعجزة حبّه مصاب ابنتها (مرقس ٧/ ٢٤-٣٠).

د - المرأة حاملة البشرى

أصبحت المرأة مع يسوع رسولةً، حاملةً بشرى الحبّ المحرّر، لم تعد متعربطة بحروف النواميس، ساعية تحنيط، حارسة قبرٍ فارغ. فتراها شاهدة قيامة، تنطلق في كلّ سبيل حاملةً رسالة المحبّة، بها تخترق جدار الخوف، تزرع الرجاء، تدكّ قعود التلاميذ وتثبّت إيمانهم، كما فعلت المجدليّة صباح أحد القيامة، وقد استجاب يسوع لهفتها إليه بمعجزة حبّه،

فانطلقت إلى الإخوة تذيع بشرى الزمن الفصحيّ (متّى ٢٨/٧-١٠).

هـ - المرأة غيريّة رحومة altruiste

أصبحت المرأة مع يسوع متواضعة، خدومة، منفتحة على الآخرين، «بيت قربانٍ» يشعُّ إشعاع الوداعة، ويبعث دفء الحياة. لم تعدْ المرأة متكبّرة كما كانت سارة حاملة إسحق وهي تطرد أمتها هاجر حاملة إسماعيل، بل تراها مصلّية، بسيطة، فخورة، تجابه المصاعب، تندفع بروح الخدمة والغيريّة وهي حبلى بفرح المستقبلات، كما كانت مريم حاملة الموعود، المنطلقة لتخدم أليصابات، فتقلّص المسافات الجغرافيّة والروحيّة والنفسيّة معها، لتكون قريبة منها، قريبة إليها، بل قريبتها (لوقا ١/٣٩-٥٦).

و - المرأة افتدائيّة جسورة، بتولة وأمّ

أصبحت المرأة مع يسوع في حالة أمومة روحيّة، وتضامن سرّيّ (Mystique) يتخطّى محدوديّة الروابط الرحميّة. فتراها سخيّة معطاءة إفتدائيّة، ترعى كلّ مُهانٍ في جسده أو في روحه، تتعهّده، تُنضج فيه الحياة، ترى فيه ابنها، وعلى محياه ترى وجه يسوع، كما فعلت مريم على أقدام الصليب وقد عهد إليها يسوع، الحبّ الشهيد، أن ترعى كلّ مَن مات هو من أجلهم، فتكون صانعة سلام (يوحنّا ١٩/٢٦).

ح - المرأة سلطة محبّة

أصبحت المرأة مع يسوع سلطة محبّة. فتراها أنيقة الحضور، راسخة العزيمة، ملؤها المروءة، لا تنحني سوى لفقراء المسيح، تغسل أرجلهم. إنّها يدٌ سخيّة للرعاية، وزندٌ قويّة للحِماية. إنّها دائمة الجهوزيّة، تنطلق بجرأة نبويّة لمجابهة خطر الظلم والخيانة كمريمات الجلجلة، ولمواجهة فاجعة الخوف والجبانة كمجدليّة القيامة، وللتعرّض لمأساة الجهل والضياع كالسامريّة. تَقْتَحم المرأة مجاهل الصعاب، وتخترق ازدحامات الهموم وأدغالها القابعة في قلب الإنسان، فردًا كان أو جماعة، فتعرّف، كما فعلت مريم الأمّ، إلى يسوع القائم في هيكل الضمائر، وقد ظُنّ به أنّه

مفقود هناك (لوقا ٢/٤١-٥٠). تتعرّف إليه جليس الحكماء، تعترف له وتُعرّفه إلى الناس، قبلة الساعين إليه وهم لا يعلمون.

تلك هي بعض ملامح صورة «المرأة الجديدة» وقد بزر يسوع حبّة خردلها. ولولا غلاظة الرقاب، وقساوة القلوب، وبلادة الحضارات، لاكتمل نموّها، منذ زمن، شجرةً باسقةً تسارع إليها طيور الثقافات والمجتمعات، «فتعشّش في أغصانها» (لوقا ١٣/١٨-١٩)، فتستمدّ منها ما تمدّ به شعوبها الساعية إلى مثال للإنسان الكامل، وراء كلّ مسعى.

٤.١ - تهادي التطوّر الحضاريّ

يشهد المجتمع الدوليّ تقدّمًا حثيثًا نحو الاعتراف الجدّيّ بالمساواة بين الناس، ونبذ التميز القائم بينهم على اختلاف أنواعه، تقدّمًا تعبّر عنه شرعة حقوق الإنسان وملحقاتها المتتالية باطّراد. يفسّر هذا التقدّم اختمار الضمائر بقيَم الإنجيل، المتقاطع مع المكتسبات الثقافيّة المستمدّة من الخبرة البشريّة، ومن الحكمة الفلسفيّة والدينيّة المتنوّعة، ومن ذوي الارادات الطيّبة على المستوى العالميّ.

أ - العلم يعطّل المسبقات الجنسويّة

أمّا على المستوى العلميّ، فقد دحض علم الأنتروبولوجيا مقولة دونيّة المرأة تكوينيًّا، ومُسلّمة عدم أهليّتها، ونقصان عقلها وإيمانها وحظّها... فأثبت، بالمقارنة ما بين الثقافات والحضارات، عمق ارتباط ما يدرج عادة في خانة الذكورة أو الأنوثة، بنمطٍ ودورٍ ونموذجٍ اجتماعيّ، يختلف باختلاف المجتمعات، بل وداخل المجتمع نفسه عبر التاريخ. أمّا الفروقات والاختلافات السلوكيّة بين الجنسين، فلا تعدو كونها نتاجًا اجتماعيًّا ثقافيًّا غير مشروط بالموروثات البيولوجيّة.

تتميّز الخصال والتصرّفات عند رجال جماعات الموندوغومور (Mundugumur)[٨] ونسائها مثلًا، بالقساوة والعدوانيّة والغلاظة، أي

(٨) MEAD, M.: *L'un et l'autre sexe*, Denoël, Paris, 1966.

بالخصائص، «الذكريّة». وتناقض هذه النماذج مثيلاتها في مجتمعات الأرابيش (Arapesh) حيث يمتاز الرجال والنساء على حدٍّ سواء بالمسالمة واللطافة والحنان والخدمة والمشاعريّة المرهفة، أي بالخصائص «الأنثويّة».

أمّا في مجتمع الشمبولي (Les Tchambuli) فتنقلب الأدوار ما بين الجنسين بالمقارنة بما هي عليه في مجتمعنا مثلًا. فالاهتمام بالهندام والملبس، والحلي، والتبرُّج والشعر الطويل، والرقص والفنّ... هو من نصيب الرجل الذي يطلق عليه مجتمعنا صفة التخنّث والإغواء. أمّا الاهتمام بالشأن العامّ والسياسة والاقتصاد والإدارة... فهو من نصيب المرأة التي لا تعنى بجسدها والتي تحلق شعرها... وهذا ما يوضع عادةً في مجتمعنا في خانة الاسترجال.

أسقطت هذه الدراسات مقولة الفوارق الطبيعيّة بين الجنسين كمسوّغ يعتمده أصحاب المنحى الذهنيّ لإثبات المفاضلة، أولئك الذين يبرّرون مفاضلتهم هذه بنماذج مجتمعهم الحضاريّة القدسيّة (Sacralisé) فلا يتوانون عن مطلقتها (Absolutiser) حتّى في دقائق تفصيلاتها (على المرأة أن تلبس، أن تأكل، أن تصلّي، أن تجلس، أن تتصرّف... وفق الطريقة الفلانيّة المفروضة على كلّ النساء، وعلى الرجل أن يتصرّف... على هذا النحو). وذلك بالإسناد والاستناد إلى تقاليدهم وشرائعهم الدينيّة وكتبهم المقدّسة وفلسفة حياتهم.

لقد أثبتت هذه الدراسات أنّ القدرة على التعلّم والاكتساب والتحضّر والارتقاء تقوم على القليل من الموروثات البيولوجيّة والكثير من القولبة الاجتماعيّة. وما الموروثات الجنويّة (Héritage génétique) سوى مجرّد طاقة احتماليّة (Des potentialités) تنتظر تصميم صاحبها على إنمائها، إن سهّل له مجتمعه أمر انطلاقه بها. أمّا الفروقات فهي فرديّة تختلف باختلاف الأشخاص، حتّى داخل الجنس الواحد (ذكاء، شجاعة، مشاعر...).

ب - صخب «أركون العالم» (يوحنّا ١٢/ ٣١ و١٤/ ٣٠)

بموازاة اتّجاه البشريّة السليم، وتقدُّمها الملموس نحو الإقرار بحقوق الإنسان، والاعتراف بالمساواة بين الناس، والارتقاء صعدًا، ولو على بطء، نحو شموليّة القِيَم، وتبادليّة العلاقات الإنسانيّة، بفضل أنوار التذهين الأعلاميّ ورافعة الحرّيّة، تبقى هناك مساحات وجع موجعة، تنأى العلاقات فيها عن القِيَم العُليا بالمنظور المسيحيّ. فيدفع الرجل والمرأة من كرامتهما ضريبة اختلال العلاقات بينهما. وكذلك يدفع المجتمع من فرحه ورقيّه ثمن اعتلال صحّة بنيه الروحيّة والأدبيّة.

إلى الموقع والواقع الأليمين نفسهما يؤول مصير كلّ مَنْ (فردًا كان أو جماعة) «يسقُط في التجربة» التي يعرضها عليه بعالِم العالم، المتعدّدر الوجوه والمقامات، اختصاصيّو الترهيب بشتّى الأسلحة، والترغيب في كلّ طُعم، أولئك الذين يرفعونه إلى قمّة الوجاهة، ويسلّطون عليه بريق الشهرة، ويقدّمون له ممالك الدنيا ورثاساتها، ووزاراتها، ويغرونه بفخامات مجدها، وبمعالي سؤددها، وجلالات عزّها. ويعدونه بالسلطة وبالمال، إن هو «سجد لهم طائعًا صاغرًا» (متّى ٤/ ١-١١). لا يلبث الساقط في هذه التجارب أن يُسقط القِيَم الأدبيّة، ويدكّ إنجازاتها في العيلة والمجتمع على كلّ صعيد، ويشوّه صورة الرجل والمرأة ويشيّئهما بل ويسلّعهما بشتّى الوسائل المبتكرة وفي مختلف الميادين. منها تجارة الرقيق المتنّعة واغتصاب القاصرين والتخنّث وغيرها من الشواذات الإباحيّة... وتترافق هذه مع إغراق السوق بوسائل سمعيّة بصريّة موصوفة وموضوعة في متناول الجميع (صور، كتب، أفلام أنترنيت).

٢ - يسوع يرقّي الإنسان إلى شرف البنوّة لله

«لديَّ، بعدُ، كلام كثير أقوله لكم، ولكنّكم لا تقدرون الآن أن تحتملوه، ولكن متى جاء روح الحقّ أرشدكم إلى الحقّ كلّه» (يوحنّا ١٦/ ١٢/ ١٣).

ما عساه يكون هذا «الكلام الكثير» الذي يردّ يسوع أن يقوله لأولئك الذين لمس عدم قدرتهم على سماعه، منذ ألفَي سنة، والذي سوف يرشدنا إليه الروح القدس باستمرار؟

١.٢ – خمير القِيَم الإنجيليّة وعجين الواقع الاجتماعيّ

يبدو من الواضح أنّ المقصود بهذا الكلام ليس هو الحقائق التيولوجيّة الإيمانيّة أو الأسراريّة (Sacramentelles): لقد أتمّ يسوع كشفها كاملة للرسل، فآمنوا به وبروحه مساوَين في الجوهر مع الآب، وآمنوا بتجسّده وبموته وقيامته، وآمنوا بكنيسته وبمجيئه الثاني. كما سقط اعتراضهم على كلامه، في كفرناحوم، عن كسر خبز جسده وإطعامهم أيّاه للحياة الأبديّة (يوحنّا ٦/٢٤-٧١)، ما إنْ فهموا روحانيّة مقصده الأسراريّ في العلّيّة (متّى ٦/٢٦-٢٩). وهكذا يكون التلاميذ قد قبلوا الحقائق التيولوجيّة، الإيمانيّة منها والأسراريّة. وسوف يُلهم الروح القدس المعمّدين في الكنيسة اعتناق صحّة الحقائق (Orthodoxie) وسلامة الممارسات (Orthopraxie) حتّى التعمّق اللاهوتيّ في فهم الإيمان وإنضاجه. فالحقائق العقيديّة هي موضوع وحي تمّ في الزمن الرسوليّ. أمّا اللاهوت فهو موضوع إلهامات الروح القدس المستمرّة في الزمن الفصحيّ، يختلف فيه اللاهوتيّون، صانعوه، عبر العصور، ويستمرّ الروح يُلهمهم، ليرقوا به من حدود تعابيرهم، ومحدوديّات نظراتهم، وقصور أفاهيمهم (Concepts)، والتباسات مفاهيمهم (Conception) إلى مصافّ شفافيّة فهميّة (Cognitive) يؤلّفونها فتُآلف بينهم، يُجمعون عليها فتجمعهم في شركة الإيمان، وتوحّدهم مسكونيًّا.

فعلامَ إذن اعتراضات التلاميذ، تلك التي لا يطيقون بموجبها تقبّل كلام يسوع؟ إنّها اعتراضات من الصنف الأنتروبولوجيّ التطبيقيّ والاجتماعيّ الميدانيّ، أمثال تلك التي أبدوها باستهجان تهكّمي، حول كلام يسوع عن إحدانيّة الزواج المسيحيّ، وعن عدم انفكاكيّته (متّى ١٩/١٠) و«تعجّبهم من أنّه كان يحادث امرأة» (يوحنّا ٤/٢٧)، وامتعاضهم من كونها امرأة سامريّة سيّئة السيرة فاسدة العقيدة، واوتباكهم

في تقويم فلس الأرملة، بالمقارنة مع ضخامة هبات الرجال الأغنياء في خزانة الهيكل (مرقس ١٢/ ٤١-٤٢)، وذهولهم من بشرى تحملها النسوة (لوقا ٢٤/ ٢٢)، واعتبار بشرى القيامة التي أتتهم بها المجدليّة ضربًا من «الهذيان النسائيّ» (لوقا ٢٤/ ١١) يصعب تصديقه يجري على لسان امرأة (مرقس ١٦/ ١١).

أ - كرامة المرأة وإحدانيّة الزواج المسيحيّ

أكتفي بهذه العيّنة من كلام يسوع المتعلّق بالمرأة، ذاك الكلام الذي لم يقدر التلاميذ الرجال أن يتحمّلوه آنذاك. ففي إحدانيّة الزواج المسيحيّ ولاانفكاكيّته مثلًا، يعيد يسوع الاعتبار كاملًا للمرأة. فيُثبت قيمتها الشخصيّة الكيانيّة المطلقة التي انتزعها منها رجال العهد العتيق، ويساويها بالرجل بحيث يوحّدهما حبّهما الزوجيّ «ويصيران جسدًا واحدًا» كما في المسيح مع كنيسته. أمّا الزواج المعدّد، فإنّه استرخاص لكرامة المرأة، واستطفال للرجل في نارسيسيّته لانُضجيّته، واستخفاف بحصريّة الحبّ الزوجيّ. إنّه زنًى مفجع كالطلاق الذي يضجّ بجبانة الهروب نحو سهولة تغييب الآخر، ويعجّ بخيانة الإنسان دعوته إلى بطولة الحياة وقداسة السيرة، لرفضه محاكاة كمال أمانة إله العهد (Alliance) لشعبه الضعيف «الفاجر العقوق»[٩]. المرأة هي قيمة مطلقة كالرجل. إنّها شخص، أي ذاتٌ وعلاقةٌ. لها أن تحقّق ذاتها على كلّ صعيد، ولكونها كذلك، تجهد إلى تحقيق الذات معًا (Co-réalisation-de-soi) بالتساوي لكلّ من الرجل والمرأة في كلّ قطاعات المجتمع المدنيّ والدينيّ. لذا، مع يسوع، تفخر المرأة أن تكون امرأة.

ب - جسارة أنجلة الواقع الاجتماعيّ

إنّ الذي كان التلاميذ لا يطيقون سماعه هو تطبيق المحبّة المسيحيّة العمليّ هذا، هو الاجتهاد لمطابقة الناسوت بكمال اللاهوت، أي

(٩) ماري خوري: «أعروس طاهرة أمْ تبقى بغيًا عاهرة؟»، بيبليا، عدد ٤٠، ١٩٦٤، ص١٠.

يسوع، «تعلّموا منّي» (يوحنّا ٣/ ١٥)، والتماثل مع الآب «كونوا كاملين كما أنّ أباكم السماويّ كامل» (متّى ٥/ ٤٨). كان عليهم إعادة النظر في تقاليدهم الاجتماعيّة، وفي قوالب ذهنيّاتهم الفكريّة، وفي أنماط سلوكاتهم الأنتربولوجيّة، وإخضاعها كلّها، بجسارة الروح، لامتحان المحبّة المسيحيّة الصارم. كانوا يخشون هذه المراجعة الحاسمة، طمعًا ببلادة الاستكانة والراحة، فيما «ابن الإنسان لم يكن له ما يستند عليه رأسه» (لوقا ٩/ ٥٨).

تفيد سيرة بولس، في ارتداده من حكم الناموس السَلَفي إلى حالة النعمة بالمسيح، وعبر تحوُّله من يهوديّة «شاول» وفريسيّته طبق العهد العتيق التي كانها، إلى مسيحيّة «بولس» ورسوليّته للعهد الجديد التي صارها، عن جسارة تلك المراجعة الإيمانيّة التي تحثُّ عليها محبّة يسوع المحرِّر. تدفع محبّة يسوع المؤمنين به، إلى «التقدُّم في العمق» (لوقا ٥/ ٤) دومًا، عملًا بجذريّة الإنجيل، من أجل مسحنة كلّ أمر، وأنجلة كلّ فكر وقول، مهما سبق أن كان قدسويًّا غاليًا لدى الفرد أو الجماعة، إذ لا بدّ لأبناء النور من أن يتركوا المرتى يدفنون موتاهم. لم يكن سهلًا على بولس أن يتخلّى عمّا أَلِفَهُ سابقًا من العادات والتقاليد والنواميس التي سار عليها أجداده قديمًا. ولكنّه أقدم وفعل. لقد تغلّب بولس على التفرقة العنصريّة والاجتماعيّة والجنسويّة (غلاطية ٣/ ٢٨) ودافع عن البتوليّة، والأمومة الروحيّة، وعن إحدائيّة الزواج وعدم انفكاكه، وعرَّف المرأة، لا كصورة تجاه الرجل وحسب، بل رسمها صورةً إزاء المسيح، فماثلها في ذلك بالكنيسة (أفسس ٥/ ٢٢-٢٤). أدرك بولس أبعاد الكرامة والمساواة والتبادليّة، والقِيَم، والأمانة والمحبّة.. ولكنّه لم يتحرَّر، بما فيه الكفاية، من رواسب الناموس العتيق المتحكّم فيها، فقد أبقى على بعض نماذج الإنسان العتيق، وأشار مثلًا: بوجوب أن تغطّي المرأة رأسها وأن تلزم الصمت في الاجتماعات الطقسيّة (١ قورنتس ١١/ ٢-١٦)، مبرّرًا مشوراته تلك بمنطق أهل زمانه، مستعينًا بقياس البرهنة الفرّيسيّة.

إنّ شأن بولس الأمس هو شأن المعمّدين باسم يسوع في الكنيسة،

الذين بات عليهم، في كلّ زمان ومكان، التعرّض للتوثّن الطامع فيهم والزاحف إليهم، ذاك الملتحف بأقمطة التقليد وبألبسة الشرائع ويحلل الحداثة... فيداهمون، بجسارة الروح، غفلة البلادة الروحيّة، ويبدعون نماذج سلوكٍ وأنماط علاقاتٍ، تكشف، بصدقيّة أعمق، صورة الإنسان الجديد، كما أوصى يسوع.

تقضي وصيّة يسوع الجديدة بأن «أحبّوا بعضكم بعضًا كما أحببتكم» (يوحنّا ١٣/٣٤)، بألاّ «توضع الخمرة الجديدة في زقاق عتيقة» (متّى ٩/ ١٧). والعتيق هنا، هو كلّ ما لا يعبّر عن المحبّة المسيحيّة، وعن القِيَم الإنجيليّة بصدق وبشفافيّة، أو هو كلّ ما لم يعد كذلك، رموزًا كان أو شرائع أم طقوسًا أو عبادات... فلا بدّ، والحالة هذه، من استبدالها بما هو أبلغ صدقيّة منها عن المحبّة، من أجل حسن تبليغ الرسالة إلى الناس المعاصرين. تلك كانت صورة المرأة الجديدة، والرجل الجديد، والعلاقة الجديدة، المتجدّدة باستمرار بحسب حقائق الإنجيل. باتَ على المؤمنين بيسوع التزام تغيير ذهنيّاتهم والتخلّق بأخلاقيّة الإنجيل، لإبداع مقاييس جديدة، مجدِّدة، ومجدَّدة باستمرار، بها يؤوِّنون (Actualiser) القِيَم الإنجيليّة في يوميّات حياتهم. فتكون حروف المقاييس شاهدة على قيامة الروح، لا مقبرة تحتجزه وتَحْجُر عليه فيها، فيعمّ إذ ذاك جمود الموت.

٢.٢ - مع يسوع تفخر المرأة بهويّتها

«ليس في تعليم يسوع وفي تصرّفاته أي شيء يعكس التفرقة القائمة في عصره بين المرأة والرجل، بل إنّ أقواله وأعماله كانت، على عكس ذلك، تنمّ دائمًا عن الاحترام والتكريم الواجب اعتمادهما في التعامل مع المرأة... وخصوصًا مع أولئك اللواتي كان الرأي العامّ يحتقرهنّ آنذاك، ويلقّبهنّ بالزواني والبغايا، كالسامريّة (يوحنّا ٤/٧-٢٧)، والزانية (يوحنّا ٨/٣-١١)، والمجدليّة (لوقا ٧/٣٧-٤٧)...»[١٠].

---

(١٠) يوحنّا بولس الثاني: كرامة المرأة، ١٣، ص ٥٧، منشورات المركز الكاثوليكي للإعلام، ١٩٨٨.

«فكرامة المرأة تُقاس بالحبّ الذي هو عدالة وبرّ»[١١]. وبدونه تهوي إلى «الإباحيّة المؤدية إلى ازدراء الآخرين وتشييئهم»[١٢].

أ - المرأة ودورها في خدمتَي التدبير والتعليم

إختارت مريم في بيت عنيا اتّباع يسوع الوافد إليها والتلمذ له. فأزعج خيارها أختها مرتا، «المهتمّة بأمورٍ كثيرة» اغتذائيّة (لوقا ١٠/ ٤٠)، باعتباره خيارًا فيه «تسنُّت» صالونيّ غير مألوف. إنّه انزعاج لا يُستبعد أن يشاطرها فيه ضيوفها الرجال، بسبب خطورة المسّ بقسمة العمل التقليديّة، وهول تحويلها من واقع تكامليّة الخِدَم (Complémentarité) وتخصّصها بين الرجل والمرأة إلى قاعدة تبادليّة توزيع الأدوار والمهامّ ولاتفريقيّة أدائها[١٣] (Indifférenciation). حسم يسوع النزاع وحكم على خيار مريم بأنّه «نصيب لن ينزع منها» (لوقا ١٠/ ٤٢). فكرّس للمرأة خدمة التعليم الجديدة، مضافة إلى خدمة التدبير القديمة، مكرّسًا لها بذلك حقّ تحقيق الذات، تمامًا كما كان مكرّسًا للرجل، حقًّا يتضمّنه مبدأ الحبّ المسيحيّ ويضمنه، وتحقيقًا تدفع إليه إلهامات الروح القدس.

ب - ماذا عن المرأة وخدمة التقديس؟

أغريب على المؤمنين بذاك «الناطق بالأنبياء والرسل»[١٤] أن يستصعبوا التسليم بمصادرة ما قد يُلهم الروح القدس كنيسته غدًا، باسم ما سبق أن ألهم رجالها بالأمس؟[١٥]. أيعاب عليهم أن يمتحنوا كلّ أمرٍ،

---

(١١) المصدر نفسه، مقطع ٢٩، ص ١١٥.
(١٢) المجلس الراعويّ لوسائل الإعلام: الإباحيّة والعنف في الإعلام، مقطع ١٨، ص ١١، منشورات المركز الكاثوليكيّ للإعلام، ١٩٨٩.
(١٣) A.M. Rocheblave Spenlé: *Les rôles masculins et féminins*, P.U.F., Paris, 1970.
(١٤) قانون الإيمان المسيحيّ.
(١٥) يوحنّا بولس الثاني: أعطيكم رعاة، المقطع ٢٩، ص ٨١، منشورات المركز الكاثوليكيّ للإعلام، ١٩٩٢.

فيما كلّ شيء يحلُّ لهم (١ قورنتس ١٠/ ٢٣) فيُخرِجوا لأنفسهم وللعالم كل جديد وقديم (متّى ١٣/ ٥٢)؟ أكثير عليهم، والزمن الفصحيّ لمّا يتمِّ بعد، أن يستقدموا المستقبلات، ويترقّبوا قدوم ذلك اليوم الذي يتحقّق للمرأة، المعمّدة باسم يسوع ما تتهد إليه في المساهمة في خدمة التقديس؟

ولم لا؟ فالتفسير الأسراريّ يعتمد أصلًا حجّة التقليد الكنسيّ (Tradition) لا القانون العقيديّ، للبرهنة على حصريّة خدمة التقديس بكهنوت المعمّدين دون المعمّدات، أي إنّ التفسير يتمّ بمبرّرات العوامل الأنتروبولوجيّة المقرونة بأزمنتها، تلك التي تخضع أساسًا للتحوُّلات الاجتماعيّة الحضاريّة. «إنّ مستقبل الكنيسة في الألف الثالث - يقول البابا يوحنّا بولس الثاني - لن يفوته بلا ريب أن يشهد ولادة تجلّيات جديدة ورائعة للعبقريّة النسائيّة... المرأة هي الخير العظيم»[١٦].

٣.٢ - توق الأنفس الأنيقة إلى الحرّيّة

يصرّح كلّ من الديانات والمدنيّات، بمختلف رؤاها وفلسفاتها، بأنّها صاحبة الفضل في تحرير المرأة، إن بسبب أفضليّة شرائعها أو بسبب أسبقيّتها أو قدسيّة مصدرها... وإذ تنتهي المفاضلة هذه العقيمة، بالمحايدة أو بالمثاقفة أو بالمغالبة، فإنّها تفضي، تحت أنظار ذوي الأنفس الأنيقة، المزروعة أفئدتهم في كلّ دين وفلسفة وإيمان، إلى مرارة الخيبة المشدودة إلى الرجاء، ذاك المتمارد بهم نحو الأبقى والمتطاول فيهم نحو الأنقى، يتساءلون عن كرامة الإنسان، ويسألون عن حرّيّة المرأة، ويسائلون العالم عن التحرّر الإنسانيّ عن قيمة الكائن البشريّ وعن حقوقه.

أتكون حرّيّة الإنسان، وبالتالي حرّيّة المرأة، إتباعًا لنماذج قيّدتها بها شرائع الأرض أو السماء، شرائع اعتبرها أصحابها ثورة زمانها وكلّ

---

(١٦) يوحنّا بولس الثاني: رسالة إلى النساء، مقطع ١١، ص ١٨، منشورات المركز الكاثوليكيّ للإعلام، ١٩٩٥.

زمان ولا يزالون؟ أتكون حرّيّتها مِنّة يتصدّق الرجال بها عليها؟

ألعلّها استحباس في نواميس الأمس التي جمّدت في حروفها كلّ الحضارات الممكنة، فيخشى من الدهر ألاّ يأتي بمثلها؟

أم إنّها تلك التي تسعى إلى المجهول لاهثةً، لا تستوي على مبدأ ولا تستقرّ على زيّ، يلهمها حدْسٌ عميق بمثالٍ للإنسان، فيما يلتهمها في تيهانها سوء فهمه فتخاطر باستنفاد الممكنات سعيًا إليه؟

٤.٢ – مَن هو الإنسان الكامل؟

تسعى الفلسفات والمدنيّات، مدى التاريخ، إلى رسم صورة «الإنسان الكامل» الذي تنهد إليه، فتستعير من حكمة خبرتها، ومن أشواقها، ملامحه، وتطرحه أمام شعوبها نموذجًا يُحتذى. بعضها يفاضل فيه بين الذكر والأنثى، وبعضها الآخر تتفاوت لديه درجات المفاضلة، بالقيمة والحقوق، ولكنّها تبقى كلّها في حالة تلهّفٍ ما، توقًا إلى مثالٍ مفقود منه تستوحي ما تعتبره أو تزعم أنّه حرّيّة الإنسان وتحرّر المرأة.

في المسيحيّة، مثال الإنسان الكامل هو المسيح يسوع، فيه اتّحد اللاهوت بالناسوت وتمّ العناق بين الصورة والمثال، فتحقّق انعتاق البشريّة من كلّ ارتهاناتها وعبوديّاتها. يدعو يسوع كلّ إنسان إلى كمال الآب، ويرقّيه، معه، إلى شرف البنوّة لهذا «الذي في السماء»، أبانا الذي يحوّل الناس كلّهم إلى إخوة في حضرته.

بخلاف مؤسّسي الديانات ومُصلحيها، لم يكن يسوع مشترعًا، ولا شاء أن يكونه، لا في أصول العبادات ولا في أحكام المعاملات، بل دعا إلى الإيمان به، فاستودع المعمّدين باسمه، في الكنيسة، ذاته، وديعة محبّة خالصة، واسترعاهم العالم كلّه، فأعطاهم روحه يلهمهم لتأوين المحبّة في كلّ مرافق حياتهم تحت كلّ سماء. يستنبطون لها الشرائع والطقوس الاجتماعيّة، فيجدّدونها باستمرار، وباستمرار يستولدون للمحبّة حروفًا وأشكالًا تكون أكثر شفافيّة وأصدق توجّهًا، لحملها متجسّدة إلى

معاصريهم. وحدها شرعة التطويبات التي بشّر بها يسوع على الجبل (متّى ٥/ ١-١٢) هي شريعتهم. لقد أراد يسوع كنيسته حرّة من قيود الحرف والناموس، فالسبت هو للإنسان لا الإنسان للسبت (مر ٢/ ٢٧-٢٨). أرادها ناضجة، راشدة، تضمّ للقِيَم مادّة مقاييسها، تلك التي لا تلبث أن تستبدلها بأفضل منها، دونما خوفٍ على المساس بالله من جرّاء المسّ بحروف سنّته أو بنود شرعه. «فالله يريد رحمة لا ذبيحة» (متّى ١٢/ ٧). بهذه الروحيّة انطلقت الكنيسة شاهدة قيامة، فأبدعت، عبر العصور، نظمها، وتنظيماتها، وطقوسها، ولا تزال، كنظام الشمّاسيّة في الجيل الأوّل (أعمال ٦/ ١-٧) وتنظيم الرهبانيّات منذ الجيل الخامس، وأنماط الحياة الديريّة والرسوليّة، البتوليّة منها والزوجيّة أو المختلطة... حملت الكنيسة رسالة يسوع المحرّر فشهدت بحبّها لمجيئه، واجتهدت أن تبقى على عهد أمانتها له. ولئن تهاون بعض أبنائها فتجابنوا مساء الخميس، وأنكروا الحقّ أمام المحاكم والولاة (متّى ١٠/ ١٦-٢٦؛ ٢٦/ ٦٩-٧٤)، فقد كان هناك دومًا، داخل الكنيسة المقدّسة، قدّيسون يقود الروح خطاهم، فيرفعون، كصوت الديكة، أصواتهم (لوقا ٢٢/ ٥٤-٦٢) ينبّهون الضمائر بجسارة الأنبياء، حتّى تستقيم الشهادة بحسب حقائق الإنجيل (غلاطية ٢/ ١١).

٣ - حرّيّة المرأة، علامة تحرّر الشرق

يطول التبحّر في فرحة التلاقي الرائع بين هذا الترقّي الإنسانيّ، بمنطق المحبّة المسيحيّة في الكنيسة، عبر التاريخ، وبين التدرّج البشريّ بمنطق الحكمة الاجتماعيّة عبر تاريخ المجتمع المدنيّ. لم يعد هناك مثلًا، في نهاية الألف الثاني، مَن ينادي بمبدأ العبوديّة، ولا مَن يستسيغ إعادة إنتاج نظامها. ومثله الاعتراف بمبدأ المساواة، وبكرامة الكائن البشريّ، وبحقوق الإنسان... إعترافًا نظريًّا لا يزال يتطلّب الكثير من الجهود، لبلوغ إنجاز كلّ امتداداته على كافّة الأصعدة.

بشّر يسوع بطوباويّات ملكوت الله، فدعا إلى التعامل بين الناس

بأخلاقيّة المحبّة. وحثّ على مقاومة صنميّات الشرع بإبداع تجسيدات للقِيَم وبتطويرها على الدوام، بأخلاقيّة الحرّيّة. دعا يسوع إلى هذه الأخلاقيّة الإنجيليّة يبُعدَيها، وادّعى أنّه ابن الله. فانقضّ عليه أقزام شرائع الأرض وصلبوه.

ولكنّه قام من الموت، فإذا دعوته صحيحة، وادّعاؤه حقيقة، أنّه الحقّ، وبه التحرّر ومعه الحرّيّة، حرّيّة أبناء الله. فالمعمّدون والمكرّسون يشهدون، رجالًا ونساءً، أنّ كلّ مَن اتّبع المسيح الإنسان الكامل يزداد إنسانيّة هو أيضًا»[١٧].

وتراهم بموجب الارتقاء في سلّم المحبّة والحرّيّة المسيحيّة، بل وبدافعه، يندفعون لتعريف الناس بسوع المحرّر، واجتذابهم إلى قيمه، وتخمير عجين مجتمعاتهم المدنيّة بها.

تتمّ «أنجلة الألف الثالث باستنهاض ذوي الارادات الطيّبة في الشرق لعماد الكلّ بالقِيَم العُليا، قِيَم الحرّيّة، والمحبّة، والسلام، وما يتفرّع عنها، أو يرفد إليها من قِيَم العدالة، والمساواة، والأخوّة، والتضامن، والتنمية، ومجمل حقوق الإنسان، فيتحقّق سرّ التماهي بالمسيح المحرّر»[١٨].

ما من حرّيّة يدّعيها الرجل لنفسه، إن لم تشاطره المرأة إيّاها. وما من مجتمع حرّ، إن بقيت المرأة دون الرجل حرّيّة وكرامة. وما من حرّيّة أصيلة وأخوّة بين الناس حقيقيّة، إن لم يكن الله أبًا.

---

(١٧) يوحنّا بولس الثاني: الحياة المكرّسة، مقطع ١٠٨، ص ٢٠٢، منشورات المركز الكاثوليكيّ للإعلام، ١٩٩٦.

(١٨) سمير الخوري: رسوليّة أصحاب حرّيّة أبناء الله، بيت غازو، المؤتمر الثالث، منشورات مركز الدراسات والأبحاث الرعويّة، ص ١٢٥، أنطلياس - لبنان، ١٩٩٦.

صدر حديثًا عن دار المشرق